مدرسة الامير جمال الدين الاستدار

بقلم الاستاذ المرحوم محمود احمد

فى عدد شهر سبتمبر من (صحيفة التعليم الالزامى) كتبت مقدمة عامة لتاريخ المدرسة الاسلامية . ووعدت بتناول تاريخ المدارس الاسلامية . فوفاء بهذا الوعد قد اخترت لهذا العدد مدرسة « الأمير جمال الدين الاستدار »

كان القصران التاريخيان المعروف أحدهما باسم القصر الكبير الشرقى . والآخر باسم القصر الصغير الغربى أشهر عمارات القاهرة . وكانت بينهما ساحة عظيمة صالحة لاستعراض ألوف مؤلفة من الجند وما يزال جانب من هذه الساحة معروفا إلى اليوم باسم « بين القصرين » بحى الجمالية . وكان بين الرحاب التى تحيط بالقصر الشرقى رحبة « باب العيد » نسبة إلى أحد أبواب ذلك القصر وهو باب « العيد » المشرف على تلك الرحبة التاريخية التى يشغل موضعها الآن رقعة من الأرض ممتدة من شارع حبس الرحبة غرباً إلى مسجد مقطاى الجمالى بقصر الشوق شرقا وعرضها يمتد من درب المبيضة شمالا إلى بداية شارع قصر الشوق جنوباً

فى الطرف الشمالى للحد الغربى لهذه الرحبة . أو على الناصية الشرقية لشارع « الفجكشية » اليوم وخط « الركن المحلق » بالأمس ، وفى يوم السبت الخامس من جمادى الأولى سنة ٨١٩ هـ بدأ الأمير جمال الدين الاستدار بانشاء هذه المدرسة حتى انتهى من عمارتها فى يوم الخميس الثالث من شهر رجب سنة ٨١١ هجرية

والاستدار — لقب لمن يتولى أمر أموال السلطان أو الأمير ، من إيراد وصرف . واليه يوكل أمر البيوت السلطانية وحاجياتها على اختلاف أنواعها وخدمها .

غير أن الأمير جمال الدين تمادى فى الاعتداء على سلطة الوزارة حتى حصرها كلها كبيرها وصغيرها فى يده وأصبح الآمر الناهى المتصرف فى رقاب العباد والأموال فاغتصب التياسر والضياع . وكان موضع مدرسته هذه قيسارية وطباق كلها وقف فوضع يده عليها ظلماً ثم هدمها وبنى المدرسة . أما مازمه من آلات وأحجار وأخشاب ورخام فقد جمعها جمعاً واغتصبها اغتصابا

وكان بمدرسة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون التى كانت بالصوة (الطرف القبلى الغربى من شارع المعجر) جبة من شبابيك من النحاس المكفت بالذهب والفضة وأبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت ومن المصاحف والكتب، شىء كثير فاشترى كل هذا بستمائة دينار وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك، ثم نقلها إلى داره

ومع أن تخطيط هذه المدرسة يماثل غيره من تخطيط المدارس التى بنيت فى عهدها على الأقل فان رخام وزرتها وبجارة سقوفها وقوشها تشهد لمهندسها بسلامة الذوق والكفاية الفنية . والابداع فى التخطيط . أما من الوجهة الهندسية فكان على شىء من الضعف فى علم مقاومة المواد ، فقد وجدنا جدرانا بأكملها أكبر سمكا من الأساسات التى يحملها فكان ذلك سبباً فى تصدعها قبل أوانها . وسقوط مئذنتها لتصدع قاعدتها وتفكك أحجارها .

ولقد أوقف عليها كثيراً من الدور للانفاق من ريعها عليها إلا أن هذه الاوقاف كانت كالأدوات والآلات اغتصبت من الناس اغتصاباً وكان الصناع يعملون فى بنائها بأبخس أجر ، وشدة عسف . فكان جزاؤه أخيراً أن قبض عليه الملك الناصر فرج بن برقوق وقتله فى جمادى الاولى سنة ٨١٢ هـ . ثم استولى على أمواله وأملاكه ، فحسن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة ويرغبوه فى رخامها لجماله . وأن يسترد أوقافها لوفرة إيرادها فمال إلى ذلك الرأى وعمل على تنفيذه . لولا أن الرئيس فتح الله كاتب السر استشفع أن يهدم بيتاً لله تقام فيه الصلوات الخمس . وما زال بالسلطان يرغبه فى بقائها على شريطة أن تنسب اليه وأن يمحى اسم جمال الدين منها حتى رضى بذلك وفوض إلى الرئيس أمرها . فدبره أحسن تدبير ، ذلك أن موضع هذه المدرسة كان موقوفاً فاستبدل به جمال الدين أرضاً من أرض الدولة بالجيزة وحكم له قاضى القضاة كمال الدين بن العديم بصحة الاستبدال فهدم البناء الموقوف ونى موضعه هذه المدرسة وتسلم صاحب الوقف الارض المستبدل بها ، إلى أن قتل جمال الدين وصودرت أمواله فكان مما صودر هذه الأرض

وهنا ادعى السلطان أن جمال الدين ابتاعها من بيت المال بغير إذن منه فى بيعها . فأفتى حينئذ محمد شمس الدين الدنى المالكى بأن بناء هذه المدرسة الذى أوقفه جمال الدين على

الارض التى لا يملكها بوجه صحيح لا يصح . وأنه باق على ملكه إلى موته ثم تدب شهود القيمة لتقويم المدرسة فقوموها باثنى عشر الف دينار ذهباً وحرروا محضرا بهذا الثمن الذى دفع لأولاد جمال الدين على يد أحد القضاة الذى حرر عقد بيع بنائها للسلطان الذى عاد بدوره فاسترد منهم هذا المبلغ ثم أشهد على نفسه أنه أوقف أرض هذه المدرسة بعد استبدالها

وحكم حاكم حنفى بصحة الاستبدال وحكم كذلك بصحة وقف البناء الذى اشتراه بغير ثمن وحكم بصحة الوقف أيضاً . ثم طلب وقفية جمال الدين ومزقها . وجدد وقفية أخرى باسمه حرم فيها أولاد جمال الدين من فائض ريع الأعيان التى أوقفت على المدرسة وأبقى على غير ذلك من الرواتب الخاصة بخدمها . وأرباب المناصب فيها . أما فائض ريع الأوقاف فخص بعضه أولاده وباقيه تربة أبيه الملك الظاهر برقوق بالمجاورين أو بقراءة المماليك . قد حكم بذلك القضاة الأربعة بعد ما كانوا قد حكموا بصحة وقفية جمال الدين ثم حكموا ببطلانها .

ولما تملك ذلك محا من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورنكه وكتب اسم الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها . وصارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعد ما كان يقال لها «الجمالية» . ولم تزل على ذلك حتى قتل الناصر فرج . وقدم الأمير (شيخ) إلى القاهرة وتقلد زمام الحكم فتوصل كل من شمس الدين محمد أخى جمال الدين وزوج ابنته إلى شرف الدين المجمى استدار الأمير (شيخ) حتى أحضر قاضى القضاة وحكم الصدر على قاضى القضاة الحنفى برد أوقاف جمال الدين إلى ورثته من غير استيفاء الشروط فى الحكم . بل تهود فيه وجازف لأسباب أخصها عناية الأمير (شيخ) بجمال الدين الاستدار لخدمة سابقة أداها إليه . فكانت سبباً فى اتهامه بمالأته على السلطان فرج الذى قبض عليه

كذلك سعى قاضى القضاة هذا بمساعدة زملائه حتى أعاد شمس الدين إلى مشيخة خانكاة بيبرس (التى أمام الدرب الأصفر اليوم) وغيرها من الوظائف التى خلع منها عند ما قبض السلطان على أخيه وهكذا استولى شمس الدين وصهره شرف الدين على مال كثير كان قد جمع للمدرسة من فائض ريعها . ثم تورطوا إلى حد أنهم أقدموا على تلفيق وقفية أخرى أثبتوا فيها أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور وذريته وشهد بذلك قوم استمالوهم فالوا . وقد صدق على هذه الوقفية قاضى القضاة صدر الدين ابن الأدمى وتبعه بقية القضاة فاستمر الحال على هذا البهتان والافك زمناً إلى أن ثار بعض صوفية هذه المدرسة وحرر محضراً بأن النظر عليها إنما هو لكاتب السر . فلما ثبت ذلك نزعت يد أخى جمال الدين عن التصرف فى المدرسة فتولى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر واستمر الأمر على هذا المنوال فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب الأمور فى تناقض القضاة وحكمهم ببطلان ماصححوه ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ، كل ذلك ميلا مع الجاه وحرصاً على بقاء رياستهم — ستكتب شهادتهم ويسألون

محمود احمد المهندس

المدير الفنى للجنة الآثار العربية